

تذكرة إلى جهنم

هدي مهران

ليالي الهوى، لذات المتعة جنون الخطأ وتخطي الحل والحرم، كل ذلك عالم لامع وله بريق، لكنه مثل القمر تمامًا، جذبني نحوه نوره الوهاج وما إن وصلت إليه إلا وجدته مظلمًا كئيبيًا لا ترى فيه سوى الرذائل!

عالم بذيء بكل ما تحمله الكلمة من معنى، أنا من اثقلت كاهلي بالهموم وسقط بي هواي في غيبات جبٍ عميق، لم أعد أحتمل ولم يعد يجذبني هذا العالم البراق الزائف.

خرجت في تلك الليلة من سهرة حافلة مشمئز من نفسي، وألعت حتى مساحة قدماي من الأرض؛ فكم أكره ذلك العالم ولا أستطيع أن أفارقه، سحقًا هذه الذلة الأولى!

وقفت في ممر طويل لا أذكر كيف وصلت إليه، لكن وجدته خاليًا من الناس؛ فأحببت السير فيه؛ لأنني قد سئمت البشر أو بمعني أدق سئمت نفسي.
مروقت طويل والليل يزداد سوادًا والطريق لا ينتهي، زفرت بضيق ووقفت لعلي استنشق هواء غير سام أو ملوث برذائل، أغلقت عيناي لبرهة ثم فتحتهما فوجدت سيارة أجرة تقف أمامي مباشرة، جزعت، واتسعت حدقات عيني، كيف وصلت إلي هذا القرب ولم أشعر بها أو أسمعها؟!

فتح السائق باب السيارة، وترجل متوجهاً إلي، كانت هيئته تشبه أشباح
الظلام، ملابسه السوداء، وجهه القبيح شعره المتناثر وعيناه اللامعة، اضطربت
أنفاسي وهو يقترب، دنا أكثر وقال بصوت أجش:

- هل تريد أن أقلك سيدي؟

تنفست الصعداء وهدأ نبض قلبي، ثم قلت وأنا أضع يدي علي كتفه:

-لقد أخفتني يارجل!

قلتها ساخرا من خوفي.

نظر إليَّ الرجل باستهجان. وكأنه شعر بالإهانة عندما وضعت يدي على

كتفه، وسحبها علي الفور، وأردفت أقول:

-أجل أريد أن أذهب.

-قال بغلظة: تفضل.

يخامرني الشك، أم أن حالي المشوه لم يعد يميز!

تقدمنا وركبنا السيارة وأدار المحرك وتابع سيره، ثم سألتني بعد سير ليس

بطويل:

- إلى أين؟!

-لم أكن أعلم إلى أين أريد أن اذهب؟

انا لا أعرف أي مكان قد يخلصني من حالي التي بدأت تطبق على أنفاسي

وتكاد تقتلني، صمت وطل صمتي.

فقال الرجل بنفاذ صبر:

- لم تُخبرني إلى أين؟!



- إلى جهنم!

قلتها دون تفكير وما إن قلتها حتى شعرت أنني بالفعل أود أن أذهب إلى جهنم
بالييتني أستطيع، لييتني أستطيع، لم ينطق السائق بعد ذلك بكلمة، وتابع سيره
بالسيارة، وبعد وقت طويل أوقف الرجل السيارة، وقال:
- ها قد وصلنا.

ونظر إليّ وابتسم بمكرٍ، تسلل الريب إلى قلبي وقلت في دهشة:

- إلي أين وصلنا؟! -

قال بلهجة أمرّة: ترحل من السيارة هيا!

وبالفعل ترحلت، أدار السيارة ثانية، وقال وهو يغادر بصوت متهمك:

- مرحباً بك في جهنم، وأطلق ضحكات مخيفة وغادر المكان.

كان المكان حالك الظلام، تنبعث منه روائح كريهة، شديد الحر، صرخت

راكضاً خلف السيارة:

-انتظر، لا تتركن، ساعدوني!

دب الخوف في قلبي، وصرت أركض حتى تلاشت نور مصابيح سيارته، وأصبح

الظلام كل ما أرى زاد خوفاً وتصببت عرقاً وصرت ألهث، ولازلت أركض على وقع

أنفاسي لا أرى شيئاً، أصرخ بملء فمي:

-أغيثوني، النجدة، النجدة!

لكن لا حياة لمن تنادي، وقفت ألتقط أنفاسي بعد عدوٍ طويل ورغم طوله،

أشعر أنني لازلت بمكاني نكست رأسي، لكن رفعتها فجأة حين سمعت صوتنا ينادي:

-مرحباً بك في جهنم، لماذا تريد الخروج؟ ألم تكن هذه رغبتك؟



لهتت بشدة وأخذ صدري يعلو ويهبط وقلت صارخًا:

-لا، لا، لا أريد الذهاب إلى جهنم!

-الصوت: لقد فات وقت الاختيار؟

عدت أصرخ بأعلى صوت:

-لا، لا، هل مت؟ أنا لا زلت علي قيد الحياة، كيف أدخل جهنم؟!

ضحك الصوت بشكلٍ مخيف، ثم صرخ قائلاً:

-وحين ارتكبت ما ارتكبت كنت على قيد الحياة.

قلت بخوفٍ وأسى:

-لا أستطيع أن أواجه عقابي، أرجوكم اتركوني، اتركوني، من أنتم؟!

فجأة شعرت بأنفاس تقترب، ولا زال الظلام هو كل ما أرى، وما إن اقتربت

هذه الأنفاس إلا وانبعث وهج أحمر خارج من أعينهم بالكاد يظهر هيئتهم، وليته لم

يظهرها!

فهم أناس ذو أجسام ضخمة، صلح الرؤوس، كريمو الرائحة، أقبح ما ترى

عينك على الاطلاق، قيدوني بأغلالٍ وأنا أصرخ وأبكي أتصيب عرقًا ودمعًا أريد

الخلاص منهم، لكن دون جدوى، وسحبوني معهم.

وفجأة انبجس نور شديد أعمى بصري وصهر جلدي من شدة حرارته!

لم يكن نورًا بل نارًا، وفتحت أبواب جهنم!

وحين فتحتها فكت أغلالٍ وابتعدوا عني، فهرولت مبتعدًا وصرت أركض

بأقصى سرعة لكني وجدتها أمامي، ركضت يسارًا يمينًا شرقًا، وغربًا كانت جهنم في

كل مرة أمامي لا خلاص أبدًا منهم! ولازلت أصرخ:



- النجدة، الغوث!

لكن صوت بلا أذان ماذا عساه يفعل؟! استسلمت جاثياً ومرت أيام حياتي
ورأيت فيها كل لذة تحرق قلبي. والذنب سياج من ناروأنا من اخترقت ذلك السياج
ولابد أن أتجرع النيران!

وقفت أمامها خائفاً ومرتعداً من هول ألسنتها التي تمتد نحوي تأكد تلحق
جسدي، أذوب من حمم نيرانها، ورياحها السموم السوداء تعمي البصر، ورائحتها
صديد ذنوب قدرتني مثير للاشمئزاز، وبردها القارس الذي يجمد عظامي ولحمي
ودمي. برد وجليد ونيران وسموم!

فاجتمع الضدان، وعدت أذكر ذنوبي وينهال دمعي شلالاً حاراً، صرخت من
فرط الألم:

-لماذا فعلت بي هذا؟ لابد أن هذا كابوس يستحيل أن يكون حقيقة، أريد

الخروج من هنا.. آآآه

-ماذا فعلت لك لتفعل بي هذا؟

يسمع صوتاً داخله يناديه:

- تهرني اليوم وتصرخ، ماذا عن مقدسات قد هانت ووالدين نكلتهم
حسرتهم؟ ماذا عن صحة، أهلكت يد، بطشت عيون، زنت لسان تفحش، وأذان
تلصصت؟! ماذا عن أمانات ضيعت وأرجل تخطت حدودها، وعيون لم تزرف منذ
عهود دمعاتها إلا من دخان أسود متطاير؟!

-ماذا عن عقول تبلدت، وقلوب قست؟!

-ماذا عني أنا؟! نفسك، أهلكتني، أهلكتني!





-قلت بتردد وخوف: أنا!

نهرني الصوت مرة أخرى بشدة: اخسأ، وقف واجه مصيرك، تقدم وتعلم
هذه ليست جهنم هذه حياتك التي اخترت، وعلى المرء أن يواجه اختياراته.
ووقفت مجمدًا لا أدري، هل أغدو نحوها أم هي تهزول نحوي؟! لكنني أعلم
جيدًا ماذا سأرى فيها!

